محاكمة العقل بين "كانط" وبرغسون"

"Bergson" And "kant"The trial of the mind between

د.بن سليمان صادق*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر

تاريخ إرسال:2018/12/23تاريخ النشر:2019/03/04 تاريخ النشر: 2020/01/16

الملخص: نقد العقل عند "كانط" يعني الفحص عن قدرة العقل وامتحان قيمته في استعماله النظري لكل المعارف التي يطمح إلى تحصيلها مستقلا عن كل تجربة، ويضع الحقيقة مطلبا أساسيا له. وفائدة هذا النقد هو تطهير العقل وحمايته من الوقوع في الخطأ والتناقض، ومن ثم كانت المعرفة الحقيقية الصحيحة هي التي تضع الحدود التي لا ينبغي للعقل تجاوزها. أما عند "برغسون" فإن مهمة العقل لا تتجاوز حدود المادة، وإن هو تجاوزها أنتج مشكلات زائفة لا علاقة لها بالفلسفة، وأغلب النظريات الفلسفية التي وقعت في التناقض سببها استعمال العقل في نطاق غير مشروع. والفكر الفلسفي الغربي برمته في العصر الحديث والراهن لا زال يهتم بالعقل، ليس كسلطة مطلقة، بل كملكة قابلة للمحاكمة في كل وقت.

كلمات مفتاحية: العقل ; محاكمة ;فلسفة كانط ;فلسفة برغسون

When Criticizing the mind, Kant meant by the examination of the ability of the mind and testing its role in the theoretical Use of all the knowledges it wanted to reach independently from Any Experiment and put the truth an essential aim to the mind .the benefits of this Criticism is to clarify and protect from Any mistakes And contradiction, And thus the real And correct knowledge Made the Boundaries that the Mind should not cross out. In the other hand, Bergson saw the importance of the mind only based on the matter, and if it cross out the mind resulted false problems having no link with philosophy. And the major philosophical theories witch we've led to contradiction weve caused by the use of the Mind in a non specific field. All the western philosophical thoughts in the modern Era and nowadays give importance to the mind not as an absolute Authority but a faculty that can rule all time

Keywords : The trial ; the mind; Kant ; Bergson

مقدمة

الفلسفة نبتة لا تزهر ولا تنمو إلا في تربة العقل، هذا العقل الذي كثيرا ما يقوم بتحديث نفسه بالعودة إلى تاريخه وماضيه. لأن الفكر الفلسفي كلما امتدّ في الماضي أصبح أكثر قدرة على تشوّف المستقبل، لذلك تظهر المحطّات الفلسفية الكبرى في تاريخ الغرب مُشابهة لإشارات الطريق التي تظهر بين الفينة والأخرى ثم تختفي لتفسح المجال للعقل كي يُعمّق انتماءه للحاضر من خلال ما يبنيه من أفكار وما يبلغه من حقائق. صحيح أن الهشاشة التاريخية التي بلغها الإنسان اليوم لم تعد تسمح ببناء شيء قطعي نهائي في جميع مجالات المعرفة، ولم تَعد تعير اهتماما مفرطا للإجابات، لأنه بدأ يظهر في الأفق أن صنع الحقيقة إنما يحصل داخل المشكلات، لكن مع ذلك بقي تمجيد سلطان العقل ماثلا في كل فكر فلسفي أصيل. لذلك أردت أن أقف على إشكالية هامة

* – الباحث المرسل: sadekphilo@gmail.com

تتعلق بالعقل من خلال نموذجين أو مفكرين غربيين، أحدهما ينتمي إلى عصر التنوير وهو "كانط" والآخر ينتمي إلى عصر ما بعد التنوير وهو "برغسون"، رغم الاختلاف الواضح بين هذين الفيلسوفين، إن على مستوى المنهج أو على مستوى الخطوط العامة والمعالم الكبرى لتفكيرهما الفلسفي. وقد حاولتُ من خلال هذه المقارنة معالجة الإشكالية المصاغة على النحو الآتي:

إذا كان "كانط" يعتقد أن عمل العقل خارج التجربة يوقعه في التناقض، وإذا كان "برغسون" هو أيضا يؤكد أن عمل العقل خارج المادة يوقعه في كمين المشكلات الزائفة، فهل يعني هذا أن الفلسفة منذ كانط وصولا إلى برغسون أصبحت تهتم في قضايا العقل بتحديد المجالات التي لا ينبغي للعقل أن يتجاوزها؟ وبصورة أخرى هل تطور الفكر الفلسفي من "كانط" إلى "برغسون" استطاع أن يبدّد حقيقة أن العقل لم يعد مشكلا فلسفيا على الإطلاق؟

وقد تم تحليل هذه الإشكالية وفق الأسئلة البحثية الفرعية الأتية:

1- ما مفهوم العقل عند كانط؟
2- ما أهمية النقد الكانطي العقل؟
3- ما دلالة العقل عند برغسون؟
4- وما الهدف من النقد البرغسوني للعقل؟
5- وهل أن الفلسفة الغربية منذ كانط أصبحت تضع العقل موضع سؤال ومحاكمة، بعد أن كان يمثل السلطة المطلقة التي لا تعلو عليها أية سلطة أخرى؟

1- العقل في فلسفة كانط

1-1 مفهوم العقل عند كانط

الحقيقة أنه يصعب الحديث عن أفكار "كانط" فيما يتعلق بالعقل دون أن نسلط الضوء، ولو بقدر ضئيل على "الفلسفة الديكارتية" باعتبارها إحدى أهم الفلسفات المُحرّكة للفكر الحديث، من حيث اتخاذها الفكر مبدأ أساسيا، ومن حيث ارتباطها بمنهج جديد أراد له صاحبه أن يكون مغايرا تماما لما درجت عليه الفلسفات "السكولائية" وما سبقها، وسيكون ثورة حقيقية على ما كان سائدا. غير أن ما يعنينا هنا هو مفهوم العقل من وجهة نظر "ديكارت "، دون الخوض في الفلسفة الديكارتية بشكل عام. ولأنها فلسفة عقلية تولي العقل اهتماما بالغا من حيث قدرته على فتح آفاق جديدة للإنسان في المعرفة والعلم، وتعزيز سيطرته على نفسه وعلى الطبيعة، فقد كانت تهدف إلى تأسيس نظام المعرفة والفلسفة على أسس قوية، تُماثل تماما تلك الأسس التي يقوم عليها العلم الرياضي.

يعبّر العقل عن نفسه في فلسفة "ديكارت" بوصفه ملكة التمييز بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، بين ما هو خير وما هو شر، إنه في النهاية "قوّة الإصابة في الحكم"([1]). بهذا المعنى يصبح العقل مُضادا لكل عاطفة أو هوى، لذلك فالمشكل الأساسي الذي طُرح في الفلسفة الديكارتية كان يتمحور حول إيجاد طريقة معيّنة لضمان اليقين المطلق في مجال المعرفة. ولا يتأتى ذلك إلا بالعقل، فهو "وحدَه القادر على إدراك الحقيقة"([2]). وما تأتينا به الحواس لا يمكن أن يشكل معرفة طالما أنه عرضة للخطأ في كل حين. وللعقل مبادئ عامة واحدة تشكّل ماهيته، والمنهج العقلي هو المنهج الوحيد القادر على بلوغ الحقيقة، إنْ على مستوى علم الطبيعة أو الميتافيزيقا، ولا يمكن لأية تجربة أن توقعه في الخطأ، إذا ما اكتفى بحدس ما يعرض له على نحو دقيق سواء أكان في ذاته أو في المخيلة([3]). وهو إلى جانب ذلك هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس، ومردّ الإختلافات بينهم يكمن في طريقة استعمالهم لهذه الملكة لا أكثر، أي "أن اختلاف آرائنا لا يعود إلى كون بعضنا يتمتّع بعقل أفضل من الآخرين، بل ينشأ عن كوننا نوجّه أفكارنا في طرق مختلفة"([4])، وعزوف بعض الناس عن تفحص أشياء كثيرة في الحياة يعود فقط لاعتقادهم أنها تتجاوز قدراتهم، وأنها ليست في متناولهم بقدر ما هي في متناول ذوي العقول الفذة. لكن الطريق في فلسفة ديكارت أن معرفة الذهن للأشياء تحصل في العادة بنور فطري، بعيدا تماما عن كل ما يتعلّق بالحس. إنها قدرة فطرية غرسها الله فينا، أو قل "في عقولنا بهدف الوصول إلى الحقيقة بواسطة الأفكار الواضحة والمتميّزة"([5]). يقول ديكارت:" ... وينتج من ذلك أن أفكارنا وتصوراتنا، لما كانت أشياء حقيقية صادرة عن الله، فهي بما هي واضحة ومتميّزة لا يمكن أن تكون إلا صحيحة"([6]).

وإذا انتقلنا إلى مفهوم العقل كما صاغته الفلسفة التجريبية الإنجليزية، فإنه لا يعدو أن يكون صفحة بيضاء بتعبير "لوك"، أو هو أقرب إلى الغرفة المظلمة التي تشكّل الإحساسات الخارجية والداخلية نوافذها الوحيدة التي ينفذ منها الضوء. ولا وجود للأفكار الفطرية التي يتكلّم عنها "ديكارت"، لكن كيف استطاع العقل أن يمتلك هذه الأفكار؟ يجيب "لوك":" إجابتي أُلخّصها في

---

[1]) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، الشركة العالمية للكتاب، لبنان 1994. ص86

[2]) ديكارت(رونيه)، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة وتقديم سفيان سعد الله، دار سراس للنشر تونس2001.ص 82.

[3]) المصدر نفسه. ص94

[4]) ديكارت، مقالة الطريقة، ترجمة جميل صليبا، تقديم عمر مهيبل، موفم للنشر.ص3

[5]) كوتنغهام(جون)، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب. ط1 ،1997. ص51

[6]) ديكارت، مقالة الطريقة، القسم الرابع.ص50

كلمة واحدة هي، من التجربة"([1]). وبعبارة أوضح المعرفة التجريبية هي النوع الوحيد من المعرفة الممكنة للإنسان، ولا قدرة للعقل على معرفة أشياء لم تأتيه من قبل عن طريق الحواس. مع ملاحظة أن "لوك" لا يهتم بالعقل من جهة البحث في أصله وطبيعته، بل فقط من خلال وظيفته المتعلقة بكيفية تحصيل المعرفة، وهو لا يقدّم تعريفا واضحا للعقل، لذلك فإن معنى العقل عنده ينبغي أن يُؤخذ ويُستنتج من كتابه بأسره كما يؤكد "رسل"([2]). وقد يكون موقف "هيوم" – وهو أيضا من الفلاسفة التجريبيين-أكثر وضوحا عندما قال:" ... وأنّ كل قدرة الذهن الخلاقة لا تتعدّى ملكة التركيب والنقل والزيادة والإنقاص للمواد التي تُزوّدنا بها الخبرة والحواس، فعندما نفكر في جبل من ذهب فإننا نجمع بين فكرتين متلائمتين نعرفهما سلفا: الذهب والجبل"([3]). معنى هذا أن كل مواد التفكير مستمدّة من الحواس الخارجية أو الداخلية، لأن من يولد فاقدا لحاسة لا يعرف بالضرورة ما يترتّب عنها من أفكار. وفي خضم هذا الجدل الكبير الذي بلغه الوعي الأوروبي بين الإتجاه العقلي الوثوقي الذي بدأ مع "ديكارت"، والإتجاه التجريبي الذي انتهى إلى النزعة الشكّية مع "هيوم"، ظهرت الفلسفة النقدية مع كانط لتجاوز هذه الأزمة، ولرسم معالم جديدة للعقل تجعله قادرا على الإبتعاد عن كلّ وثوقية وقطعية دوغماتية، وكذلك عن كل شكّية مظللة. لذلك كانت فلسفة "كانط" تتمحور حول بيان إمكانيات العقل وحدوده قبل إصدار الأحكام.

إذا كان كانط يعتبر أنّ "هيوم" هو أحد جغرافيي العقل البشري([4]) رغم أنه فتح بابا كبيرا للشك أو الريبة، فإننا نميل إلى اعتبار "كانط" أحد كبار جغرافيي العقل البشري المتميزين انطلاقا من النظرة الجديدة التي دشّنها فيما يتعلق برسم خارطة العقل، لأنه أدرك منذ البداية أن العقل البشري معماري بطبعه "كونه ينظر إلى كل المعارف بوصفها منتمية إلى نظام ممكن"([5])، لذلك لم يتردّد في الحكم على الفلسفات السابقة على تعدّدها وتنوّعها- تجريبية كانت أم عقلية- بأنها أغفلت النظر في العقل ذاته من حيث هو ينبوع كل معرفة، وعوضا عن ذلك نظرت إلى جميع المعارف بواسطة العقل بوصفه معصوما لا قدرة لأحد على التشكيك في إمكاناته الكاملة. وقد لا نبالغ إذا قلنا أن هذا ما دفعه إلى البحث في العقل ذاته من حيث طاقاته وقدراته بهدف التأكّد ممّا يستطيع

---

[1] Locke(John) An Essay concerning Human Understending.Book2), London, twenty-fifth edition.1825.p51

[2]) رسل (برتراند)، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة1977. ص175

[3]) هيوم ديفيد، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، دار الفارابي،لبنان، ط1،2008. ص39

[4]) كنط(عمّانوئيل)، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، لبنان، ط1، 1988. ص 367

[5]) المصدر نفسه. ص248

بلوغه وما لا قدرة له على بلوغه، سواء في المعرفة أو في الأخلاق. وبهذه النظرة تمكّن "كانط" من تخطّي النظرة "الديكارتية" التي سادت الثقافة الأوروبية وقتذاك.

الحقيقة أنه لفهم المشروع الفلسفي الكانطي وموقف كانط من العقل يجدر بنا أن نميز بين عدة مفاهيم يستعملها "كانط"، فهو يميّز بين العقل والذهن، الأوّل ملكة المبادئ، أو ملكة المعرفة العليا، لأن ما يطمح إليه هو تنظيم هذه المعرفة وفقا لمبدأ معين، أما الثاني فهو ملكة التفكير في موضوعات العيان الحسي، ومن ثم "هو معرفة بواسطة تصورات"([1]). الذهن لا يستطيع أن يُزوّدنا بمعارف تركيبية عن طريق التصورات التي هي في النهاية مجموعة مبادئ، إنه مقتصر على معطيات الحس أو التجربة، أما العقل فلا علاقة له بالتجربة أو بموضوعاتها، وإنما يرتبط بالذهن. وعلى ذلك فالمعرفة نوعان:

- معرفة الذهن التي تتم بواسطة مكوَّنَة، مادتها الأولى موضوعات التجربة.
- معرفة أعلى منها تتم بواسطة مبادئ عليا

وبمعنى أدق أن العقل المحض الذي يفكر دون الإستعانة بالتجربة، والذي يعتمد على ذاته فقط، لا يتضمّن سوى مبادئ تنظيمية تنزع نحو الوحدة أكثر من تلك التي تَكُون للذهن. لذلك قال "كانط":" كل معرفة بشرية تبدأ إذن بحدوس وتذهب منها إلى أفاهيم وتنتهي بأفكار"([2]). وهذه العناصر الثلاثة التي يتحدث عنها "كانط" تناظر ملكات النفس الثلاث: الحساسية والذهن والعقل، وكلها خالية من كل مادة معرفية، لأن مادة المعرفة تأتي من معطيات الحس المشتتة التي تنتظم وفق مقولة الزمان والمكان، للتحول إلى الذهن في شكل تجربة، ثم يأتي العقل ليفرض عليها وحدة عليا. وعليه فإن العقل حسب كانط يتجه فقط إلى ما هو متعالي، ساعيا إلى الكلية والشمولية، ومعرفته إنما تحصل عن طريق المبادئ، وتختلف عن تلك التي تحصل عن طريق قواعد الذهن، وطريقته في ذلك تركيبية، أي أنه يسعى إلى تصور التركيب الأعلى للشروط بعيدا عن كل عيان حسي، ومن ثم فهو يشبه إلى حد ما فكرة" الصور" عند أفلاطون.

2-1 لماذا نقد العقل؟

يصرّح كانط في تصدير الطبعة الأولى لكتابه" نقد العقل المحض" أنّ على العقل أن يقوم بأشق مهمّاته وينشئ محكمة تضمن له دعاويه المحقة، وتخلّصه في ذات الوقت من كل الإدّعاءات غير المؤسسة، بناء على قوانين خالدة وثابتة. وهذه المحكمة هي نقد العقل المحض نفسه. وعلى ذلك فإن نقد العقل يؤدي في النهاية وبالضرورة إلى علم يبعده عن كل شك. على أنه ينبغي أن يُفهَم من

[1]) بدوي(عبد الرحمن)، إمانويل كنت، وكالة المطبوعات، الكويت،ط 1، 1977. ص 166

[2]) كنط(عمّانوئيل)، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبه. مصدر سابق. ص341

النقد هنا: الفحص عن قدرة العقل بوجه عام فيما يتعلّق بكل المعارف التي يطمح إلى تحصيلها مستقلا عن كل تجربة. يقول كانط:" ...إلا أني أفهم بذلك نقدا، لا الكتب والسيساتيم بل لقدرة العقل بعامة بالنسبة إلى جميع المعارف التي يمكن أن ينزع إليها بمعزل عن أي تجربة، وبالتالي، الفصل في مسألة إمكان أو لا إمكان الميتافيزيقا بعامة. وتعيين مصادرها ونطاقها وحدودها، وكل ذلك بناء على مبادئ"([1]). وفائدة هذا النقد هو تطهير العقل وحمايته من الوقوع في الخطأ. ولا يهدف إلى توسيع معارفنا بل إلى تصويبها فقط. إنه يعني أن يقوم العقل بعملية النقد معتمدا على ذاته فقط، ودون الإستعانة بالتجربة أو الملاحظة. وبمعنى ما هو الفحص عن نظام الأسس القبلية التي تتضمن صحة التجربة. والفلسفة الترنسندنتالية(المتعالية) هي التي تتكفل بتحقيق علم إمكان المعرفة التركيبية القبلية، "ترسندالية" هي كل معرفة لا تهتم بالموضوعات بقدر ما تهتم بطريقتنا في معرفة الموضوعات من حيث يجب أن تكون ممكنة قبليا"([2])نقد العقل المحض إذن هو امتحان لقيمة العقل ذاته، من حيث استعماله النظري الذي يضع الحقيقة مطلبا أساسيا له، وغاية قصوى له. ونقد العقل العملي هو امتحان لقيمة العقل من حيث هو أساس الفعل والسلوك، وغايته ثبوت الأخلاقية. لذلك أراد كانط لفلسفته النقدية هذه أن تتجاوز المذاهب التقليدية، "وإذا كان لابد من وصف يميّزها فإن شعارها الحقيقي أن الفلسفة هي تشريع العقل"([3])، بل إن المهمّة الأساسية لهذه الفلسفة النقدية هو السعي إلى الفحص عن العقل المحض من أجل بيان طبيعة المعرفة، خاصة و أن الميتافيزيقا حسبه لا تزال في حالة من الشك و التناقض، بسبب غيابها كمشكلة ينبغي أن تُطرح على النحو الصحيح(4)، و إن كان "هيوم" – حسب رأيه – أكثر من اقترب من حل هذه المشكلة(5). ولا يمكن أن تُحل هذه المشكلة إلا بالفحص عن الاستعمال المشروع للعقل، ومدى قدرته على تحقيق وتأسيس معرفة على درجة عالية من اليقين. أي توجيه البحث إلى كيفية اشتغال العقل في عملية تحصيل المعرفة. لذلك فإن كتابه "نقد العقل المحض" هو بحث في شروط إمكان تحقق علم يتكفل ببلوغ كل المعارف. وكان "كانط" قد سلك طريقا وسطا بين "موقف العقليين" وموقف "الحسيين" اعتقد فيه أن المعرفة لا تحصل بالتجربة، ولا بالعقل، بل بهما معا. وعلى هذا الطريق سار واضعا "العقل بين الفهم الصوري الذي حلله فلاسفة العقل، وبين التجربة التي جعلتها المدرسة الإنجليزية في مرتبة

[1]) المصدر نفسه. ص 26-27

[2]) عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية،دار المعارف مصر1967. ص 62

[3]) المرجع نفسه. ص 54

[4]) كنط،(عمّانوئيل) نقد العقل المحض، مرجع سابق. ص52

[5]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها

الصدارة"(1). وإن كان ذا نزعة عقلية تامة جعلته يحب العلوم الرياضية والتجريبية كالفيزياء، ولذلك رأى أن المنهج التحليلي قادر على بلوغ نتائج إيجابية، لأنه نفس المنهج الذي أدخله "نيوتن" في الفيزياء فكانت له نتائج مفيدة. وقد سعى "كانط" إلى تبيين ما في التيار العقلي والتيار التجريبي من فساد. فالأول وضع ثقته المطلقة في العقل، فتجاوز حدوده وراح يبحث في كل موضوع. وأقرّ إمكانية بلوغ كل المعارف دون استثناء، بما في ذلك موضوعات الميتافيزيقا. والثاني قصّر كثيرا، لأنه اكتفى بما يقع عليه الحس في العالم الخارجي. وعلى ذلك فكل معرفة حسب كانط تبدأ بحدوس، وتسير من ثم إلى تصورات، وتنتهي بأفكار. والعالم الذي نعرفه هو عالم تجربتنا، أي العالم الموجود في زمان ومكان معين. والذي تترابط أجزاؤه تبعا لقانون العلية. والزمان والمكان حسبه مفهومان قبليان يؤطران كل معرفة. فالإحساسات دون مقولات عقلية مشتتة عمياء، والمقولات العقلية دون معطيات حسية فارغة جوفاء.

ومن ثم كانت المعرفة الحقيقية الصحيحة هي التي تضع الحدود التي لا ينبغي للعقل تجاوزها، وتخضع التصورات القبلية للفحص قصد ردّها إلى مصادرها. وقد ظهر له أن الميتافيزيقا لا يمكن أن تستمد علمها من التجربة الخارجية كالفيزياء، ولا من التجربة الداخلية كعلم النفس. بل هي معرفة قبلية مستمدة من العقل المحض. ولا بد لها أن تشمل فقط على أحكام قبلية، أي سابقة على التجربة. وأي عمل للعقل خارج الواقع والتجربة يوقِعه في تناقضات كثيرة وأوهام. ويصل "كانط" إلى أن نقد العقل يؤدي في النهاية إلى علم، على خلاف استعماله الدوغمائي الذي يؤدي إلى مزاعم لا أساس لها، بل يؤدي إلى ما هو أبعد من ذلك وهو "الريبية". وبمعنى أكثر وضوحا فإن مشكلة العقل ليست مع الموضوعات التي يتناولها بقدر ما هي مع المشكلات المنبثقة من طبيعته، أي إن عليه أن يعرف تمام المعرفة قدرته بالنسبة إلى الموضوعات التي تُقدّمها التجربة حتى يسهل عليه تحديد نطاق وحدود استعمالاته خارج حدود التجربة. ولعلّ عدم انتباه الفلاسفة إلى هذه المسألة هو الذي جعل الميتافيزيقا تصاب بالإفلاس العام، بعد أن كنا علّقنا عليها طويلا آمالا جميلة.

2- في الدلالة البرغسونية للعقل:

2-1 صعوبة تحديد المفهوم

من المفارقات العجيبة التي نجدها لدى "برغسون" انه يتجنّب دائما الخوض في مسألة المفاهيم وتحديداتها، بل يجاهرُ في مواضع عديدة من مؤلفاته أن دائرة الفلسفة هي دائرة "الكيف" والتوتر والحركة، وأن المعرفة الحدسية التي يبشّر بها إنما هي في جوهرها معرفة مباشرة تبدأ بتمزيق

[1]) بوترو(إميل). فلسفة كانط. ترجمة عثمان أمين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1972. ص 24

حجب الألفاظ والرموز. بل قد يكون أحد أهدافه أنه يسعى إلى تحرير الفكر الفلسفي من عبودية اللغة. لذلك ليس علينا أن ننتظر منه تعريفا محددا وواضحا للعقل على النحو الذي وجدناه عند "فيلسوف الحدود" وهو "كانط". لكنه مع ذلك يتوسّع في تحديد مصدر هذا العقل، ومصدر الغريزة والعلاقة بينهما. وإذا أردنا الوقوف على الفرق الجوهري بينهما، فينبغي التركيز على موضوع كل منهما، ومجال تطبيقه. "المعرفة في حالة الغريزة إنما هي معرفة بأشياء، أما في حالة العقل فمعرفة بعلاقات"[1].

ولما كان الفلاسفة يميزون بين مادة المعرفة و صورتها، فإن العقل من جهة ما ينطوي عليه من عناصر فطرية يتضمن معرفة الصورة. أما الغريزة فتتضمن معرفة المادة[2]. مثال ذلك أن الطفل الذي يبحث عن ثدي أمه[3] يؤكد بذلك أن لديه معرفة لاشعورية بشيء لم يسبق له أن رآه. وهذا سلوك غريزي. أما إذا فهم الطفل على نحو مباشر أشياء معينة لا قدرة للحيوان على إدراكها، فهذا يظهر وجود معرفة فطرية ببعض العلاقات، مثل "معرفة العلة. والمعلول"[4]، أو حمل صفة على موصوف. ومعنى ذلك أن المعرفة الغريزية تقرر ما هو كائن فقط، بينما تتجه المعرفة العقلية إلى توضيح الصلة بين المقدمات والنتائج. الأولى" تعرف الشيء معرفة داخلية تامة pleine بينما تنطوي الثانية على معرفة خارجية جوفاء vide"[5]. الأولى مرتبطة بموضوع محدد، لذلك هي جزئية مادية، بينما الثانية غير مقيدة بموضوع، لذلك هي كلية صورية. العقل إذن كما نفهمه من فلسفة "برغسون" ملكة تفكير وملكة إدراك العلاقات، وأيضا ملكة صنع الأدوات، ومن ثم فوظيفته الأساسية أن يكشف عن الوسيلة التي تتيح له التخلص من المآزق، ويتحدد بمعرفة وإدراك علاقة الموقف بالوسائل الصالحة لاستغلاله، وإن كان فيه عنصر فطري فإنما هو نزوعه إلى إقامة علاقات، وإضفاء نوع من الوحدة على الظواهر المختلفة[6].

2-2 أهمية النقد البرغسوني للعقل:

يعترض برغسون بشدة على كل من يقول أن في البدء كان العقل، بل كان الفعل والعمل، وصورة العقل على هذا النحو الذي نراه عليه اليوم، مستخلص من الفعل ذاته. فليست المعرفة من صنع العقل، بل هي جزء من الواقع الحي الذي أنتج لنا العقل. وما أعظم خطأ الفلاسفة الذين اعتقدوا

[1]) Bergson. L'évolution Créatrice, p.u.f. Paris 1983, 155e. édition. P 150

[2]) Ibid. p149-150

[3]) Ibid. p 148

[4]) Loc. cit

[5]) Ibid. p 150

[6]) أنظر: برغسون(هنري)، التطور المبدِع، ترجمة جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1981. ص138 وما بعدها.

أن العقل جُعل للنظر المحض، لأن التاريخ يثبت أن العقل وُجد للإنتاج و الصناعة، التي لا تقوم إلا على المادة الخام[1]. فلا غرابة إذن أن موضوعه الأساسي هو الصلب غير المتعضي[2] Le solide inorganisé. ولما كانت المادة الصلبة ممتدة، وتعرض لنا موضوعات منفصلة، يمكن أن تتجزأ أو تنقسم إلى أجزاء أخرى، "فإن العقل لا يتصور بوضوح إلا الممتد، والمنفصل والسكون"[3]. ولا قدرة له على فهم الحركة والديمومة، والتغير. يقول برغسون:«إن الصفة التي يتميز بها العقل هي عجزه الطبيعي عن إدراك الحياة»[4]. فالعقل باعتباره صانعا للأفكار، وملكة لجميع التصورات، يطمع دائما في تكوين فكرة عن كل شيء، حتى ولو لم يكن هذا الشيء في متناوله. وهكذا ينتقل إلى مجال النظر والحياة، وهنا يبدأ في إثارة مشكلات زائفة. بل قد يقع في تناقضات تعبّر عنها المذاهب الفلسفية التي وجّه إليها برغسون نقدا لاذعا، خاصة تلك المذاهب القائلة بنسبية المعرفة. ولعلّ السبب يكمن في الاعتقاد الزائف بقدرة التصورات الجوفاء على إعادة تركيب الواقع المتحرك، حينها فقط ينتقل الفيلسوف من التصورات إلى الواقع، مقيما مذهبا هو في النهاية مجرد تركيب شامخ لتصورات فارغة. وعلى هذا ليس الفيلسوف من ينقطع عن رؤية الأشياء ليكتفي بالصور والأفكار. لأن هذا مجرّد لعب، "والمذاهب الفلسفية المغلقة هي من قبيل الألعاب"[5]. بل إنها تنشئ فلاسفة يبحثون عن أطر جاهزة قادرة على احتواء كل المشاكل الفلسفية، ثم يفرغونها وقد فارقتها جميع الاستفهامات.

ومن الطريف أن تجد هذه الفكرة صدى لها في فلسفة "جيل دولوز" Gilles Deleuze الذي يعتبر أن الفلسفة هي الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم[6]، إلا أن كل مفهوم يحيل إلى مشكلة، وإلى مشكلات لن يكون له بدونها معنى[7]. وعلى ذلك فإن المفاهيم في الفلسفة لا يتم إبداعها إلا تبعا لوظيفة المشكلات التي نقدّر أننا لم نتبيّنها جيدا، أو أننا أسأنا طرحها[8]. بل إن الفكر الحقيقي هو الذي يعيش أبعاد السؤال، و" الفلسفة ذاتها ما هي إلا جملة من الأسئلة والتساؤلات النقدية المتعاقبة على بؤرة الوعي"[9]. ولطالما ألحّ برغسون كثيرا على ضرورة التمييز بين المشكلات

---

[1]) Bergson. L'évolution Créatrice. Ibid. p54

[2]) Ibid. p 154

[3]) Ibid. p156

[4]) Ibid. p 166

[5]) أنظر مراد وهبة، المذهب في فلسفة برغسون. دار المعارف. مصر 1960. ص 62

[6]) دولوز(جيل)، فليكس غتاري، ما هي الفلسفة؟ ترجمة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، لبنان، ط1،1997. ص 30

[7]) المرجع نفسه. ص 39

[8]) المرجع نفسه. ص 40

[9]) عبد القادر بوعرفة، التريكي دفاعا عن الفلسفة، أوراق فلسفية، دار الثقافة العربية القاهرة، العدد 15. 2008. ص 191

الصحيحة والمشكلات الزائفة، أو تلك التي أُسيء طرحُها. ولعل أغلبنا يخطئ تماما حينما يعتقد أن الصحيح والخطأ يتعلقان فقط بالحلول، ولا يتم التمييز بينهما إلا مع ظهور الحل. ومن ثم كانت الحقيقة في الفلسفة أن نجد المشكل و نطرحه بصورة سليمة على أن نبحث له عن حل[1]. فطرح المشكلات إذن ليس مجرد اكتشاف، بل هو اختراع بمقتضاه يعطي الوجود ما لم يكن موجودا[2]. و يلاحظ "دولوز" أن برغسون يتميز كثيرا عن غيره من الفلاسفة الذين اكتفوا بالقول بأن صحة أو خطأ مشكلة معينة مرهون بمدى قدرتها على أن تقبل حلا أو لا تقبل[3]. ومن هنا لا يتردّد "دولوز" في القول أن أي تاريخ للناس سواء في جانبه النظري أو العملي المتعلق بالممارسة هو في نهاية الأمر تاريخ تكوين المشكلات[4]. ولهذا السبب يميل إلى القول أنه لا يمكن تقويم "المفاهيم الديكارتية" مثلا إلا تبعا للمشكلات التي تجيب عنها، وعلى المفاهيم الجديدة أن تكون على علاقة مع مشكلات هي مشكلاتنا، ومع تاريخنا، وخاصة مع ضروراتنا[5].

نخلص من كل ذلك إلى نتيجة هامة وهي أن العقل من حيث هو ملكة التصورات يسعى إلى تكوين فكرة عن كلّ شيء، حتى ولو كان ذلك الشيء بعيدا عن مجاله، وهو ما يفضي به إلى مشكلات زائفة، وإلى متناقضات تُعبّر عنها اختلافات الأنساق الفلسفية المتعدّدة في إعطاء مفاهيم معينة للمسألة الواحدة، كما هو الحال بالنسبة لـ" الشيء في ذاته" الذي يمكن أن يكون الجوهر عند "اسبينوزا"، أو "الأنا" عند "فشته"،أو "المطلق" عند "شلنج"،أو "الفكرة" عند "هيجل"، أو "الإرادة" عند "شوبنهور".

3- النتائج ومناقشتها:

- النقاش الفلسفي في جزء كبير منه بعد" كانط" أخذ يتسع أكثر و يتجه إلى تحديد دور العقل في حياة الإنسان بصورة عامة، وكذا دوره في مختلف أصناف المعارف المختلفة، فهذا العقل "الخلاق" الذي أنتج هذا التاريخ الشامل على حد تعبير"هيجل"* بقي موضع سؤال في فلسفة" شوبنهور" وفلسفة "نتشه" وفلسفات التحليل على تعددها والفلسفة الفينومينولوجية، وغيرها من الفلسفات، وكأن الصراع بين المدارس الفلسفية يبقى مستمرا في الفكر الأوروبي، إذ لم يعد

---

[1]) Bergson. La pensée et le mouvant. p.u.f. Paris 1975. 91e. Edition. p 51

[2]) Ibid. p 52

[3]) Deleuze(Gilles). Le Bergsonisme..p .u. f. Paris 2004. 3e édition. p 5

[4]) Ibid. p 6

[5]) جيل دولوز، فليكس غتاري، ما هي الفلسفة؟ مرجع سابق. ص 49

* يميز هيجل بين العقل الإنساني والعقل الكلي المطلق الذي يمثل الصورة اللامتناهية، أما عقل الإنسان فمهما كان تعريفه فهو مجرد قوة مضيئة متناهية

الخلاف مجديا حول موضوع المعرفة بقدر ما أصبح السجال حول مجالات استعمال هذا العقل في المعرفة، وكذا دوره في إيجاد منهج قادر على تحقيق نتائج يقينية.

- رغم الإختلاف الواضح بين "كانط" و"برغسون"في المنهج وفي المذهب، بل حتى الإختلاف في المرجعية العلمية والفلسفية لكل منهما، إلا أنهما يتفقان مع على ضرورة تجريد العقل من عرشه، ووضعه في دائرة المحاكمة، وقد كان السلطة المطلقة منذ أفلاطون.

- رسم حدود العقل تمثّل أحد أهم مباحث الفلسفة التي لا غنى عنها منذ كانط، ولعلّ التفلسف الحقيقي يبدأ من هنا. أي من مراجعة كل ما كان يمثل السلطة العليا في إصدار الأحكام.

- قد لا نهتمّ كثيرا بالنتائج التي وصل إليها "كانط" أو "برغسون"، لكن الأهم هو هذه الجرأة الفلسفية على وضع العقل على محك النظر، وامتحانه انطلاقا منه، أي من داخله ولذلك ماقام به "كانط" و"برغسون" يشبه إلى حد كبير ما قام به "انشطين" في مجال الفيزياء، فـ"إنشطين" يقرر أن ميكانيكا نيوتن مشروعة في نطاق التجارب العادية، أو في الكميات المحدودة، والسرعات البطيئة كسرعة المركبات، لكنها ليست مشروعة بالنسبة للأجسام التي تتجاوز سرعتها سرعة الضوء. ومثله يقرّر "كانط" أن العقل مشروع فقط في مجال التجربة، و"برغسون" كذلك يصرح أن العقل مشروع فقط في نطاق المادة حيث السكون والجمود والثبات.

4- خاتمة البحث

يمثل "كانط" إحدى أهم المحطات الكبرى في الفكر الغربي التي يعود إليها الفلاسفة الغربيون باستمرار متى دعت الحاجة ومتى شعروا قليلا بالوهن، وذلك لتنشيط حركة الفكر وتجديد خلاياه، ولبعث الروح من جديد في كامل الوعي الأوروبي بهدف التقدم. فـ"كانط" له فضل السبق في جعل العقل موضع نقد ومحاكمة، ومن ثم مهّد لحقول معرفية خصبة في الفلسفة الغربية المعاصرة والتي ستضع هي الأخرى العقل موضع سؤال.

- قد يفيدنا هذا كثيرا، وقد يكون أكثر ما تحتاجه اليوم في فكرنا العربي المعاصر، حيث بدأ العقل يعتذر عن كثير من مهامه في قضايانا، وحيث أُحيلت بعض مفاهيمه وتصوراته على التقاعد، وأصبحت أغلب وظائفه خارج الخدمة. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أن الشك المطلق في بعض قضايانا الحاسمة (" شك مونتاني") أنفع لنا في الوقت الراهن من أن نضل نبرّرها بواسطة العقل.

- يعلّمنا 'النقد الكانطي" و"النقد البرغسوني" للعقل ألا نضع ثقتنا في وجود وصفة جاهزة لحل مشاكلنا، بل علينا أن ندخل في صراع تأويلي مع نصوص فلاسفتنا و مفكرينا، كي نستأنف النقاش الفلسفي الذي يسمح لنا بالانخراط كأعضاء وأنداد في المجتمعات الحديثة. لقد تعلّمنا من أساتذتنا أن الرعيل الأول من مفكري النهضة نظر إلى التراث نظرة تقديسية أدت إلى الانحطاط القاتل في

جميع مجالات الحياة النفسية والدينية، بل أدّت إلى صنمية العقل، وهو ما ولّد لدينا استعدادا باهرا لتقبل جميع أشكال الاستعمار والظلم، أفلا يكون من المناسب لنا اليوم أن نتمرّن على هذا النوع من النقد الإيجابي، وندرّب أنفسنا على وضع دائرة لنقاشنا الفلسفي نكون فيها أكثر حرية وجرأة من ذي قبل؟ لا يعني ذلك الجرأة على "مسائل الدين" باعتماد العقل كما قد يفهم البعض، لكن يعني أن نستأنف النقاش الفلسفي لدى فلاسفتنا ومفكرينا مثل "ابن رشد"، "الفارابي"، "ابن خلدون" بالاحتكام إلى تفرضه علينا هذه الحداثة الغربية من جهة، وكذا الاحتكام إلى مشاكلنا الراهنة من جهة أخرى.

المصادروالمراجع

1. بوعرفة عبد القادر، **التريكي دفاعا عن الفلسفة**، أوراق فلسفية، دار الثقافة العربية القاهرة، العدد 15. 2008.
2. ديكارت(رونيه)، **قواعد لتوجيه الفكر**، ترجمة وتقديم سفيان سعد الله، دار سراس للنشر تونس2001
3. ديكارت، **مقالة الطريقة**، ترجمة جميل صليبا، تقديم عمر مهيبل، موفم للنشر
4. كوتنغهام(جون)، **العقلانية فلسفة متجددة**، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب. ط1 ،1997.
5. رسل (برتراند)، **تاريخ الفلسفة الغربية**، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة1977
6. هيوم (ديفيد)، **مبحث في الفاهمة البشرية**، ترجمة موسى وهبة، دار الفارابي، لبنان، ط2008،1.
7. كنط(إمّانوئيل)، **نقد العقل المحض**، ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، لبنان، ط1، 1988
8. بدوي(عبد الرحمن)، **إمانويل كنت**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 1، 1977
9. عثمان أمين، **رواد المثالية في الفلسفة الغربية**، دار المعارف مصر1967.
10. بوترو(إميل). **فلسفة كانط**. ترجمة عثمان أمين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1972.
11. برغسون(هنري)، **التطور المبدِع**، ترجمة جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1981
12. مراد وهبة، **المذهب في فلسفة برغسون**. دار المعارف. مصر 1960.
13. دولوز(جيل)، فليكس غتاري، **ما هي الفلسفة**؟ ترجمة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، لبنان، ط1، 1997
14. جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ج2، الشركة العالمية للكتاب، لبنان 1994.
15. Locke(John) An Essay concerning Human Understending.Book2,London,twenty-fifth edition.1825
16. Bergson(Henri). **L'évolution Créatrice,** p.u.f. Paris 1983, 155e. édition
17. Bergson**. La pensée et le mouvant**. p.u.f. Paris 1975. 91e. Edition
18. Deleuze(Gilles). **Le Bergsonisme**..p .u. f. Paris 2004. 3e édition**.**